



## ميتران وإكتشاف فلسطين

. تم الايحاء اكثر من مرة، في بداية الخريف الحالي، باحتمال قيام الرئيس الفرنسي فرنسوا ميتران بمبادرة سياسية تهدف الى تنشيط مساعي السلام في الشرق الاوسط. وكانت هذه المبادرة تربط بالمراهنة على فوز حزب العمل في الانتخابات الاسرائيلية. فكان من الطبيعي ان يصرف النظر عنها بعد فشل صديق ميتران وموضع آماله شمعون بيريز في هذه الانتخابات. غير ان هناك ما يؤشر الى ان ميتران ما زال يولي اهتماماً كبيراً لعملية التسوية. ويذهب البعض الى انه يطمح الى لعب دور تاريخي في استعجال تلك العملية، خصوصاً انه ترفع بعض الشيء عن المتابعة اليومية للسياسية الداخلية بعد اعادة انتخابه واصبح متفرغاً للسياسة الخارجية. وتأتي في هذا السياق، ردة فعله الايجابية (نسبياً) على قرارات المجلس الوطني الفلسطيني. لتبرز هذا الاستعداد، كونها تشكل نقلة لا يستهان بها في المواقف الفرنسية المعهودة، وفي موافقة الشخصية.

سيرة ميتران السياسية تقاطعت مع الصراع العربي - الاسرائيلي غير مرة في العقود الاربعة المنصرمة. وربما كان هذا الصراع الموضوع الوحيد (باستثناء قضية العلاقات بين المعسكرين الشرقي والغربي) الذي عاصره ميتران من دون انقطاع، منذ بدء حياته السياسية بعد الحرب العالمية الثانية حتى اليوم وكان تعاطيه معه طوال هذا الوقت من موقع الحليف والداعم للصهيونية ولاسرائيل. وتشاء المصادفة ان يكون الوزير الشاب ميتران هو الذي تلا في ١٩ كانون الثاني (يناير) ١٩٤٩ البيان المتضمن الاعتراف الفرنسي الاولي (de facto) بدولة اسرائيل، بصفته ناطقاً باسم الحكومة، علماً بأن الاعتراف الفرنسي الكامل (de jure) تأخر خمسة اشهر اخرى حتى ٢١ ايار (مايو) ١٩٤٩. وكان ميتران قد عبّر قبل ذلك، وبخاصة في الفترة السابقة لقيام دولة اسرائيل، عن دعمه للحركة الصهيونية التي كانت تتخذ من فرنسا قاعدة لها لتنظيم الهجرة الى فلسطين وتأمين الأسلحة والعتاد الحربي، فضلاً عن التدريب. وفي ذلك، كان شأنه شأن معظم رجال السياسة في فرنسا الذين بلغ تأييدهم للحركة الصهيونية ذروته في حادث سفينة «اكسودس». وأعرب ميتران وقتئذ عن اعتراضه على ما اعتبره تخاذل الحكومة تجاه البريطانيين. ولعله كان يجهل مدى المساعدة التي كان يقدمها زميلاه في الحكومة جول موك وادوار دوبرو الى المهاجرين اليهود الموقوفين في سفن بريطانية قبالة الشاطئ الفرنسي. وقد استمر في موقفه الداعم اسرائيل طوال مرحلة الجمهورية الرابعة التي كان عضواً في معظم حكوماتها.

لا بد هنا من التذكير بالخلفية الثقافية السياسية التي يحملها ميتران في تعاطيه مع الشرق الاوسط وهي تتلخص في ان معظم ابناء جيله الذين عايشوا الحرب العالمية الثانية، سواء اشتركوا في المقاومة ضد النازية كما فعل هو ام لم يشتركوا فيها، يكونون مشاعر تقدير خاصة لليهود، نتيجة الابداء الجماعية التي استهدفت هؤلاء، ويعتقدون ان التصدي للاسامية يتطلب بالضرورة اعلاء شأن كل ما يحمل طابعاً يهودياً، أكان ذلك في الادب والفكر، او في الدين، او في السياسة.



بالطبع، ليست هذه المشاعر مجانية. بل انها استخدمت لتغليف سياسات عدوانية بلغت ذروتها في الخمسينات حين ارتبطت فرنسا واسرائيل بتحالف غير معلن ضد العرب، أدى في ما أدى الى تزويد اسرائيل بالقنبلة الذرية. وكان شمعون بيريز وقتئذ يجول كما يشاء في اروقة وزارة الدفاع الفرنسية. وقد اثار تداخل المصالح هذا غضب ديغول بعد عودته الى السلطة.

## مراحل التعاطف والوعي

وترافق التعاطف مع اليهود عند ميتران، كما عند سائر ابناء هذا الرعيل، مع جهل تام، بل تجاهل متعمد، لكل ما هو عربي، سواء في مجال الفكر والادب او في مجال السياسة. وهذا فضلاً عن العداء الذي كنته فرنسا في عهد الجمهورية الرابعة للتوجه القومي العربي ولعبد الناصر على وجه التحديد. وفي هذا المجال، يقول احد خبراء الحزب الاشتراكي السابقين ان ميتران لم يغفر بعد للعرب الاخطاء التي ارتكبها هو او شارك في ارتكابها بحقهم (الجزائر، السويس...) وهي أخطاء أدت الى زوال الجمهورية الرابعة العام ١٩٥٨.

واستمر ميتران في تعاطفه مع اسرائيل وسلبيته تجاه العرب طوال الفترة التي كان خلالها في المعارضة، وان كان بدأ يبدي شيئاً من الاهتمام للقضية الفلسطينية بعد حرب ١٩٦٧ وتوسع التيارات اليسارية المتطرفة في فرنسا التي كانت تؤيد الثورة الفلسطينية، ثم بعد اعادة تشكيل الحزب الاشتراكي والتحالف مع الحزب الشيوعي المؤيد للحقوق الوطنية الفلسطينية. لكنه لم يعد النظر اطلاقاً في موقفه. واذا كان التقى ياسر عرفات العام ١٩٧٤، فقد كان ذلك مصادفة اثناء وجوده في مبنى «الاهرام» في القاهرة. ثم أيد اتفاقات «كامب ديفيد» في حين كانت الحكومة الفرنسية متحفظة.

كان «تطبيع» العلاقات بين فرنسا واسرائيل من المهمات التي حددها ميتران علناً لنفسه. ويقصد بالتطبيع ان تعامل فرنسا اسرائيل مثل ما تعامل اية دولة اخرى. وجاءت في هذا السياق زيارته لاسرائيل في اذار (مارس) ١٩٨٢، وكانت اول زيارة لرئيس فرنسي الى اسرائيل. ثم كرت المسبحة. فما ان خرق ميتران ما اعتبره من المحرمات حتى توالى الوزراء وزعماء المعارضة لزيارة اسرائيل. لكن تطور الاحداث ابتداء من اجتياح لبنان دفعه الى الاهتمام مباشرة بالطرف الآخر، اي الطرف الفلسطيني، فساهمت فرنسا في تأمين خروج المقاتلين الفلسطينيين من بيروت، ثم في العام التالي من طرابلس. لكن ميتران، علم رغم اهتمامه بتطور الصراع، لم يبلور تصورا واضحا للموقف الفرنسي من التسوية، خلافاً لادعاءاته. فتارة كان يدعي ان الاراضي المحتلة هي اراض «متنازع عليها»، وطوراً يقول ان الاردن قد يصلح وطناً للفلسطينيين. صحيح انه نادى بحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره، خصوصاً في خطابه امام الكنيست. لكن موقفه من اقامة دولة فلسطينية خضع باستمرار لشروط والتباسات قانونية وجغرافية كادت تفرغه من اي مضمون، بالرغم من تبنيه لفكرة المؤتمر الدولي.

## الأمة الفلسطينية

انطلاقاً من ذلك، يتضح ان الاعلان بأن فرنسا لا تعارض من حيث المبدأ فكرة الاعتراف بدولة فلسطينية مستقلة بشكل فعلاً تطوراً جديداً، مهما قيل في باريس عن استمرارية السياسة الفرنسية.



ويمكن اعتبار هذا التغيير، وان كان محدوداً، من مكاسب المجلس الوطني الفلسطيني. اما التحفظات التي عبر عنها رولان دوما، وزير الخارجية، بالنسبة الى الاعتراف الفعلي بدولة فلسطين، فهي لا تخفف من اهمية التحول الحاصل، لاسيما ان حجة دوما المستندة الى الفقه القانوني الفرنسي ليست فقط لتبرير التلكؤ. وكما اسلفنا، فان فرنسا لم تعترف باسرائيل رسمياً إلا بعد مرور سنة على قيامها.

في اي حال، قد يكون التحول في النظرة الى الشعب الفلسطيني التي عبر عنها ميتران في اول رد فعل له على مقررات المجلس الوطني (في المقابلة التي نشرتها صحيفة «ليبراسيون» الباريسية) اهم من اعلان دوما عن عدم وجود معارضة مبدئية لفكرة الاعتراف. ويبدو من هذا التعليق ان ميتران اصبح يشعر بأنه يمتلك اخيراً المعايير التي كانت تنقصه لفهم القضية الفلسطينية. فهو، اذ يقرر ان ثمة «امة فلسطينية» بدأت تبرز، يدخل الشعب الفلسطيني في طبقات فكرية بات معتادا عليها، وان كان في ذلك تجاوز.

بطبيعة الحال، تثير عبارة «امة فلسطينية» استغراباً فعلياً عند معظم العرب. والاستغراب ناجم من كون كلمة امة في الفرنسية تحمل مضامين ثقافية ولغوية تنطبق على الامة العربية عموماً. مع الملاحظة ان القومية العربية تأثرت بالمفهوم الفرنسي للامة. في حين ان الكلمة اياها في اللغة الانكليزية، او على الاقل في الاستعمال الاميركي لها، تشير في احيان كثيرة الى «الدولة» فحسب. بيد ان سوء استخدام هذه العبارة يعبر افضل تعبير عن الالتباسات التي سادت الفهم الغربي، او على الاقل الفرنسي، لقضية فلسطين.

منذ اكثر من اربعين عاماً، حتى منذ قبل قيام دولة اسرائيل، والفلسطينيون يشكلون مصدر حيرة للعقل الفرنسي. فهم ليسوا بأمة ولا يدعون اصلاً انهم امة. هذا ما لا يريد ان يفهمه العقل الفرنسي. وان يكونوا جزءاً من الامة العربية، فهذا ايضاً غير مفهوم. ذلك ان القومية العربية كانت في نظر الفرنسيين مجرد اختراع بريطاني لا يمثل شيئاً في الواقع، كما كانت في مرحلة لاحقة خدعة شيوعية. ومحصلة الامر ان الفلسطينيين باتوا لفترة طويلة عاصين على التركيب العقلي الفرنسي، ولاسيما الاشتراكي منه، وان كان بدا بوضوح في أواخر الستينات انهم شعب وليسوا فقط لاجئين. وبهذا المعنى، يأتي تنبؤ ميتران ببروز «امة فلسطينية» بمثابة حل لعقدة منطقية مزمنة، وان كان حلاً سيئاً.

ومن المفيد، في هذا المجال، المقارنة بين رد فعل ثاتشر ورد فعل ميتران على مقررات المجلس الوطني. فاذا كان الاثنان تكلموا بالكثير من الفوقية عن الفلسطينيين، تمكن ملاحظة فارق «منهجي» بينهما. فثاتشر اعطت شهادة حسن سلوك في البراغماتية لمنظمة التحرير. اما ميتران، فان موقفه يفسر كاستحسان موجه الى كل الشعب الفلسطيني بصفته بدأ يتشكل في «امة فلسطينية». واذا كان ذلك يتماشى مع نزعة الرئيس الفرنسي الى اعتبار نفسه مفكراً بعد طول خبرة، فعساه يؤدي به الى السعي للضغط جدياً على اسرائيل حتى تترك لتلك «الامة» ان تستقر في أرضها.

سمير قصير



<b>Id-Reference</b>	<b>88-Pr-000535</b>	
<b>Media</b>	<b>(Support)</b>	HC
<b>Title</b>		ميتران واكتشاف فلسطين
<b>Subtitle</b>		مراحل التعاطف والوعي - الأمة الفلسطينية
<b>Section</b>		
<b>Language</b>		عربي
<b>Source</b>		الحياة
<b>Page</b>		
<b>Date</b>		١٩٨٨/١٢/١٣ 13/12/1988
<b>Author</b>		سمير قصير
<b>Co-Author</b>		
<b>Keywords</b>		
	<b>Persons</b>	فرنسوا ميتران - شمعون بيريس - جول.موك - ياسر عرفات - ادوار دوبرو - شارل ديغول - جمال عبد ناصر - رولان دوما - مارغريت ثاتشر
	<b>Locations</b>	فرنسا - فلسطين - اسرائيل - اردن - بريطانيا
	<b>Dates</b>	19 : 01 : 1949, 21 : 05 : 1949, 1958, 1967, 1974, 1982
	<b>Themes</b>	فرنسوا ميتران - سلام - شرق أوسط - تسوية - حزب عمل - انتخابات اسرائيلية - عرب - اسرائيل - علاقات فرنسا تطبيع - صراع - فرنسا - حركة صهيونية - حادثة «اكسودس» - حرب عالمية ثانية - يهود - نازية - قنبلة ذرية - تيار يساري - حزب اشتراكي - اجتياح لبنان - فلسطين
<b>Subject</b>		سيرة الرئيس الفرنسي فرنسوا ميتران السياسية تقاطعت مع الصراع العربي - الإسرائيلي غير مرة في العقود الأربعة المنصرمة وربما كان هذا الموضوع الوحيد الذي عاصره ميتران من دون انقطاع، منذ بدء حياته السياسية بعد الحرب العالمية الثانية وكان تعاطيه معه طوال هذا الوقت من موقع الحليف الداعم للصهيونية وإسرائيل فما الذي تغير حتى تتحول نظرة ميتران إلى الشعب الفلسطيني والتي عبرت عنها ردة فعله الإيجابية على مقرارات المجلس الوطني الفلسطيني؟